

وجهة رحلات العلماء والأولياء من خلال كتاب منشور الهداية في كشف حال من ادعى

العلم والولاية لعبد الكريم الفكون (ت. 1073هـ/1663م)

The Journeys of Scholars and Saints in 16th-Century Algeria
According to Manshūr al-Hidāyah
by 'Abd al-Karīm al-Fakkūn (d. 1663)

بلعربي عبد القادر ♦

جامعة قسنطينة 3 صالح بوبنيدر abdelkader.belarbi@univ-constantine3.dz

تاريخ الإرسال: 2025/07/09 تاريخ القبول: 2026/01/20 تاريخ النشر: 2026/01/31

الملخص باللغة العربية:

يهدف هذا البحث إلى دراسة أنماط رحلات العلماء والأولياء في الجزائر خلال العهد العثماني، من خلال تحليل كتاب منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون (ت. 1073هـ/1663م)، الذي يُعدّ مصدرًا هامًا لفهم الحياة الدينية والاجتماعية في تلك الفترة، ولاسيما في إقليم بايلك الشرق. يعتمد البحث على تصنيف الرحلات وفق طبيعتها وأهدافها، سواء كانت علمية، دينية، أو تجارية، مع التركيز على أهم المحطات والوجهات. كما يستعرض البحث حركة العلماء داخليًا بين مناطق بايلك الشرق وخارجيًا نحو مصر وتونس والحجاز، إضافة إلى الرحلات المغاربية نحو قسنطينة. وتبرز الدراسة الأبعاد العلمية، الروحية والاجتماعية لهذه الرحلات، مع تسليط الضوء على دور العلماء والأولياء في تعزيز شبكة العلاقات بين العائلات العلمية والسلطة المحلية والمركزية، مما يتيح فهمًا أعمق لديناميات الحركة الدينية والثقافية في الجزائر العثمانية.

الكلمات المفتاحية: الشيخ الفكون؛ منشور الهداية؛ الرحلات؛ الجزائر؛
الأولياء؛ العلماء.

Abstract : This study aims to examine the patterns of travel undertaken by scholars and saints in Algeria during the Ottoman period through an analysis of Manshūr al-Hidāyah fī Kashf Hāl Man 'Ad'ā al-'Ilm wa-al-Wilāyah by 'Abd al-Karīm al-Fakkūn (d. 1073 AH / 1663 CE). This work is considered a key source for understanding the religious and social life of the era, particularly in

♦ المؤلف المرسل

the Beylik of the East. The research classifies these journeys according to their nature and purpose—whether scholarly, religious, or commercial—with a focus on major destinations and transit points. It explores the internal movement of scholars within the regions of the Beylik of the East, as well as external travels to Egypt, Tunisia, and the Hijaz, in addition to Maghrebi journeys towards Constantine. Furthermore, the study highlights the scientific, spiritual, and social dimensions of these journeys, emphasizing the role of scholars and saints in strengthening networks between scholarly families and both local and central authorities, thus providing deeper insight into the dynamics of religious and cultural mobility in Ottoman Algeria..

Keywords: Travels, Scholars, Saints, Ottoman Algeria, Beylik of the East, 'Abd al-Karīm al-Fakūn, Biographical Literature.

مقدمة:

تُعَدُّ حركة العلماء والأولياء خلال العهد العثماني في الجزائر أحد أبرز مظاهر النشاط الديني والثقافي، إذ لعبت الرحلات دوراً مركزياً في نقل المعرفة، وتعزيز الروابط العلمية والاجتماعية بين المدن والمناطق المختلفة، فضلاً عن تقوية الشبكات الروحية بين الفئات العلمية والسلطوية. ومن هذا المنطلق، يكتسب كتاب منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية لعبد الكريم الفكون (ت. 1073هـ/1663م) أهمية كبيرة، باعتباره مرجعاً أساسياً يوثق سير العلماء والأولياء ويكشف طبيعة رحلاتهم وأهدافها وامتداداتها الجغرافية.

ويتميز كتاب الفكون بغناه بالمعلومات الدقيقة حول العلاقات بين العائلات العلمية والسلطة المحلية والمركزية، ما يجعله مصدراً مهماً لفهم الأبعاد الاجتماعية والدينية والسياسية لحركة العلماء والأولياء في إقليم بابلک الشرق. وتركز هذه الدراسة على تحليل أنماط الرحلات المذكورة في الكتاب، سواء كانت علمية، دينية، تجارية، أو روحية، مع إبراز أهم الوجهات الداخلية والخارجية، بما في ذلك رحلات المغاربة نحو قسنطينة، ورحلات العلماء الجزائريين إلى مصر وتونس والحجاز، وبالرغم من أهمية هذه الرحلات في الحركة العلمية والدينية، يبقى التساؤل الرئيس

كيف ساهمت رحلات العلماء والأولياء في تعزيز الروابط العلمية والدينية والاجتماعية بين مناطق الجزائر العثمانية وخارجها، وما طبيعة هذه الرحلات وأهدافها في ظل العلاقات بين العائلات العلمية والسلطة المحلية والمركزية؟ وتنبثق عن هذه الإشكالية مجموعة من الأسئلة الفرعية، منها:

1. ما أنواع الرحلات التي قام بها العلماء والأولياء خلال هذه الفترة ؟
 2. ما أبرز الوجهات الداخلية والخارجية لهذه الرحلات ، وما أهدافها ؟
- تهدف هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية لأنماط الرحلات العلمية والدينية والاجتماعية ، مستندة إلى كتاب الفكون ، مع إبراز دور العلماء والأولياء في ديناميات الحركة الثقافية والدينية في الجزائر العثمانية.

1.عبد الكريم الفكون وكتاب منشور الهداية:

قبل التطرق إلى أبرز الرحلات الواردة في كتاب منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية ، من الضروري تقديم نبذة عن مؤلفه وكتابه ، نظراً للأهمية الكبيرة التي يمثلها كلاهما في دراسة الحياة العلمية والثقافية في الجزائر خلال الفترة العثمانية ، وبخاصة في مدينة قسنطينة.

1-1.التعريف بعبد الكريم الفكون:

يُعدّ عبد الكريم الفكون من أبرز علماء قسنطينة في القرن الحادي عشر الهجري/السابع عشر الميلادي ، وقد نشأ في بيئة علمية عريقة ، حيث كان والده من كبار العلماء والمفتين في المنطقة. تلقى الفكون تعليمه على يد والده وغيره من العلماء ، وتبوأ مكانة بارزة في الحياة الدينية والعلمية ، كما تولى منصب الإفتاء في قسنطينة.

ألّف عبد الكريم الفكون كتاب منشور الهداية على فترات متقطعة ، في شكل مذكرات أو تراجم ، وكان ذلك خلال النصف الأول من القرن السابع عشر. ويُرجّح أنه أتم تأليف الكتاب بعد سنة 1045هـ/1635م ، وهي السنة التي توفي فيها والده ، حيث يظهر في الكتاب أثر هذا الحدث من خلال طغيان الطابع التاريخي التأملي في بعض المواضع.

2-1.التعريف بكتاب منشور الهداية:

. يُعتبر منشور الهداية من أبرز كتب التراجم في الجزائر العثمانية ، وقد اشتمل على سير عدد من العلماء والأولياء الذين عاصروهم المؤلف أو سَمِعَ عنهم ، كما وثّق من خلالهم ملامح الحياة الاجتماعية والدينية ، بما في ذلك الرحلات التي قاموا بها داخل وخارج البلاد. لذا ، يشكّل هذا المؤلف مصدراً غنياً للباحثين في مجالات التاريخ ، والسير ، والأنثروبولوجيا ، والدراسات الدينية والاجتماعية في الجزائر خلال الحقبة العثمانية²

هذه المعلومة تسلط الضوء على البعد النقدي في كتاب منشور الهداية ، وهو جانب مهم جداً لفهم خلفيات المؤلف ودوافعه. إليك دمج هذه الفكرة في فقرة علمية متكاملة ضمن قسم التعريف بالكتاب ، مع الحفاظ على السياق الأكاديمي:

2 حسين بوخلوة : عبد الكريم الفكون القسنطيني حياته واثاره 1580 — 1663 م — رسالة ماجستير — جامعة وهران — 2007 ، 2008 ، ص 70.

فخصص الفكون في مؤلفه حيزاً مهماً لفضح عدد من "الدجالين والمشعوذين" الذين ادعوا العلم والولاية زوراً، مستنكراً تنامي مظاهر الفساد، والزندقة، والنصب، والاحتيال. وقد حمل الكتاب في طياته نوعاً من التحسر على ما اعتبره انحداً في القيم والمبادئ داخل المجتمع القسنطيني، ما جعله أقرب إلى شهادة تاريخية صادقة تعبر عن أزمة الهوية الدينية والعلمية في عصره.

فإن منشور الهداية لا يُعدّ فقط سجلاً للتراجم، بل وثيقة اجتماعية ونقدية من الطراز الأول، تكشف عن مواقف الفكون الإصلاحية ونظراته الحادة إلى الظواهر المنحرفة في زمنه³

3. بنية كتاب منشور الهداية ومضمونه:

قسّم الشيخ عبد الكريم الفكون كتابه منشور الهداية إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة، واضعاً بذلك بناءً منهجياً يعكس رؤيته النقدية والانتقائية في تناول الشخصيات الدينية والعلمية في عصره، افتتح المؤلف كتابه بمقدمة تحدّث فيها عن النموذج المثالي من العلماء والصلحاء، وبيّن الصفات التي يجب أن يتحلّى بها من يُنسب إلى العلم أو الولاية، من حيث الورع، والزهد، والتقوى، واتباع السنة⁴.

أما الفصل الأول، فقد جاء بعنوان "فيمن لقيناه من العلماء والصلحاء"، وفيه قدّم تراجم لعدد من العلماء الأتقياء والصوفية الصالحين الذين التقى بهم شخصياً أو سمع عنهم، وكانوا، في نظره، قدوة صالحة يُحتذى بها.

وفي الفصل الثاني، تناول الفكون فئة أخرى وصفها بـ"المتشبهين بالعلماء"، وهم أولئك الذين تظاهروا بالعلم وطلبوا المناصب الدينية والشرعية دون أن يمتلكوا المؤهلات الحقيقية لذلك، مما عرّض المجتمع للانحراف والخلط بين العلماء الحقيقيين والدجالين.

أما الفصل الثالث، فقد كان الأكثر حدة ووضوحاً في النقد، وحمل عنوان: "فيمن ادعى العلم والولاية من الدجاجة والكذابين والمتشدقة والمبتدعة الضالين المضلين". وقد أسهب فيه المؤلف في فضح المبتدعة، والدجالين، وأصحاب الطرق الباطلة الذين أساءوا إلى الدين، وضلّلوا الناس بادّعاءات كاذبة.

3 أيمن صالح وسعاد كوريم وآخرون: إسلامية المعرفة مجلة الفكر الاسلامي، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1999، ص 354.

4 عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق: ابوالقاسم سعد الله، دارالغرب الاسلامي، لبنان، 1987.

في حين خصص الفصل الرابع لما سماهم بـ "إخوان العصر" ، أي من عايشهم من الأصحاب والأحباب من العلماء والصلحاء ، وورد تحت عنوان " :في ذكر من أردنا ذكره من الأصحاب والأحباب" ، وفيه بُعد شخصي وإنساني ، حيث عبّر فيه عن تقديره لبعض الشخصيات التي شاركتها نفس القيم والتوجه الديني.

أما عنوان الكتاب فقد اختاره المؤلف بنفسه ، حيث ذكر في المقدمة قوله " :وقد سميت منشور الهداية في كشف حال من ادّعى العلم والولاية" ، وهو عنوان يعكس بوضوح هدف المؤلف من هذا العمل ، وهو التمييز بين العالم الحقيقي والدجال المدّعي ، وبين الصوفي الصادق والمشعوذ الزائف.

2.أنواع الرحلات :

اعتمد الفكون في كتابه أسلوب الترجمة والسرد الذاتي لرصد تحركات العلماء والأولياء ، وذكر وجوه ارتحالهم وتنقلهم ، ما يعكس أهمية "الرحلة" كفعل اجتماعي وثقافي له دلالاته المتعددة. ومن خلال قراءتنا للكتاب ، وسنقسم هذه الرحلات حسب طبيعتها ووظيفتها يمكن تصنيف الرحلات إلى ما يلي:

2-1.الرحلات العلمية:

تمثل هذه الرحلات أبرز أنواع التنقل التي تكررت في كتاب الفكون ، وهي تلك التي قام بها العلماء طلبًا للعلم ، أو لتبادل المعرفة مع علماء آخرين ، أو لنيل الإجازات العلمية ، فتنقل عدد من العلماء بين قسنطينة وتونس ، أو من الجزائر إلى فاس ، حيث كانت هذه المدن مراكز علمية كبرى ، بالإضافة إلى توجه بعض العلماء إلى مصر والأزهر الشريف طلبًا للعلم ، أو للقاء شيوخ كبار

رحلة أبي العباس أحمد زروق:

يُعدّ أبو العباس أحمد زروق من أبرز أقطاب التصوف في بلاد المغرب ، وقد امتدت شهرته من فاس إلى ليبيا ، ومن هناك إلى الحجاز ، وهو من القلائل الذين اجتمع فيهم العلم ، والزهد ، والتصوف السني ، وتُعد رحلته إلى مدينة قسنطينة من بين الوجهات الرحلات التي أشار إليها المؤرخون ، لا سيما في كتاب البستان لابن مريم ، الذي وصفه بـ " :الشيخ الولي الصالح الزاهد ، القطب الغوثي ، العارف بالله ، دعا صيته شرقًا وغربًا ، ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة." ⁵

زيارات أحمد زروق إلى قسنطينة كانت تحمل طابعًا صوفيًا وروحيًا بالأساس ، غير أن أثرها لم يكن محصورًا في الجانب الروحي فقط ، بل امتد إلى التأثير في البيئة

5 ابن مريم : البستان في ذكر الاولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ص45.

وجهة رحلات العلماء والأولياء من خلال كتاب منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم

والولاية لعبد الكريم الفكون (ت. 1073هـ/1663م)

العلمية والدينية المحلية ، حيث شكّل قدومه إلى قسنطينة لحظة تفاعل بين الصوفية المغربية والجزائرية ، ورسّخ وجود تقاليد صوفية تقوم على الاعتدال والورع والعلم. إن هذه الرحلة تعكس انفتاح قسنطينة – بصفتها مركزاً حضرياً هاماً في بايلك الشرق – على المدارس الصوفية الكبرى في الغرب الإسلامي ، مثل الطريقة الشاذلية والزروقية ، وتدلّ على الدور الذي لعبته المدينة في استقبال واستيعاب التيارات الدينية القادمة من الخارج.

رحلة محمد الفاسي المغربي:

اتجه في رحلته من مدينة فاس إلى مدينة قسنطينة ، يصفه الفكون بأنه كان متمكناً في الفقه والنحو خصوصاً ، أخذ عنه الفكون بعض مسائل الإسطرلاب ، وبعض من الفرائض والمسائل النحوية غير أن الفكون وجد لديه بعض النقص في العلم⁶

رحلة أحمد المقرئ:

يرجع أصله من لمدينة تلمسان ، تعلم وحفظ في جامع القيروان بفاس ، ولكن بعد فساد وتقلب ثرواتها ، ارتحل عنها وقصد مدينة الجزائر تصدى لتدريس بها وقرأ التفسير أثناء إقامته هناك.⁷

رحلة الولي الصالح سليمان القشي:

تبدو رحلة مليئة بالعزيمة والتفاني في طلب العلم ، رغم الظروف الطارئة التي واجهته ، فقد كان سليمان القشي ينوي الذهاب إلى مصر ومنها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، لكن حدث عائق حال دون ذلك وتأخر في الوصول إلى الجامع الأزهر. بدلاً من أن يكون هذا التأخير عائقاً ، استغله في استثمار وقته في طلب العلم ، حيث درس على يد شيخ عصره ، العلامة الفقيه الكبير أبي النجاة سالم السنهوري ، وتعمق في علوم المختصر ، والرسالة ، والألفية ، بعد أن قضى مدة في الدراسة والتعلم ، عاد إلى قسنطينة ، حيث انخرط في النشاط العلمي والوعظ ، واشتغل بالإقراء ، مكرساً جهوده لنشر العلم وتعليمه للآخرين.⁸

تؤكد هذه الرحلات على الديناميكية العلمية في الجزائر خلال الوجود العثماني في بايلك الشرق ، وعلى الروابط التي كانت تربط النخب العلمية المحلية بنظيراتها في باقي العالم الإسلامي.

6 أبو القاسم سعد لله: شيخ الاسلام...، المرجع السابق ، ص 61.

7 الفكون عبد الكريم: المصدر السابق ، ص 223.

8 عبد الكريم الفكون: المصدر السابق ، ص 60.

2-2. الرحلات الدينية (الصوفية والحج):

برزت الرحلات الدينية في سياقين رئيسيين الحج للبلاد الحجاز ، وزيارة الأولياء والزوايا والتبرك بهم ، إلى جانب الانخراط في الطرق الصوفية ، فذكر الفكون عدداً من العلماء الذين أدوا فريضة الحج وتنقلوا بين الحجاز ومصر ، كما أن بعض الأولياء ارتحلوا إلى فاس أو تلمسان لزيارة أضرحة مشايخ الطرق أو للتبرك بمجالسهم.

رحلة أحمد المقرئ :

تبرز على أنها رحلة روحانية وعلمية ملهمة ، حيث كان من بين الحجاج الذين توجهوا نحو المشرق لأداء فريضة الحج. خلال رحلته ، عبر تونس والتقى هناك بأبي محمد تاج العارفين ، إمام جامع الزيتونة ، فرافقه في السفر إلى الحج عبر البحر. بعد أداء مناسك الحج ، أقام أحمد المقرئ في مصر ، حيث التحق بجامعة الأزهر الشريف ودرس فيه ، ليكتسب العلم وينهل من بحر العلوم الدينية. لُقّب في مصر بسيرة طيبة وأخلاق حميدة ، ونال محبة واحترام الناس ، خصوصاً بين الجالية المغربية المقيمة هناك ، مما زاد من شهرته وسمعته العلمية⁹

رحلة محمد بن علي الزواوي:

تُبرز سيرة شيخ صالح من أهل البر والتقوى ، ينتمي إلى عائلة الصلاح ، حيث كان والده معروفاً بالخير والتقوى ، عارفاً بدينه ومحافظاً على آدابه ، عندما توجه محمد بن علي الزواوي نحو المشرق لأداء فريضة الحج ، مرّ بقسنطينة ، وهناك التقى ببعض العلماء والصالحين ، ومن بينهم الفكون الذي روى أنه أخذ البركة منه في صغره ، مما يدل على مكانة الزواوي وقدره في الوسط العلمي والروحي ، بعد أداء الحج ، عاد محمد الزواوي إلى وطنه ، لكنه لم يلبث كثيراً ، حيث توفي بعد مدة ليست طويلة من عودته ، تاركا أثراً طيباً بين الناس كشيخ صالح وولي من أولياء الله الصالحين¹⁰

رحلة عبد الله محمد (والد عبد الكريم الفكون) :

تعكس صورة ولي صالح وعالم فقيه متصوف ، من بيت الفكون المعروف في قسنطينة. كان عبد الله محمد فقيهاً صوفياً يرجع إليه في المسائل الفقهية والافتاء ، وذا سمعة طيبة بين الناس لسمته وتعففه. كما وصفه ابنه عبد الكريم الفكون بأنه فقيه ومتصوف أيضاً ، يقوم لليل ويدرس العلم بجد واجتهاد ، توجه عبد الله محمد نحو المشرق لأداء فريضة الحج ، لكنه توفي في طريق عودته في مكان بين الحجاز ومصر سنة 1045هـ.

9 نفسه ، ص ، 224.

10 عبد الكريم الفكون: المصدر السابق ، ص 200.

¹¹، وقد وصف العلامة العياشي قبره وذكر أنه "عليه بناء ، وقد زرناه وتبركنا به وأقمنا هناك (أي بالموليج) يومين"، إذ كان قبر محمد الفكون من الأماكن التي يقصدها الناس للتبرك ، معتبرين إياه من أولياء الله الصالحين الذين اتصفوا بالعلم والصلاح. حتى العياشي نفسه تبرك عند زيارته لقبره بالموليج.¹²

رحلة محمد النقاوسي:

ينتمي محمد النقاوسي ، الملقب بـ"بن يحيى بن أبي النقاوسي" ، إلى مدينة نقاوس وهو قسنطيني الأصل ، حيث وُلد في 18 جمادى 849هـ. بدأ مسيرته العلمية بالتوجه إلى قسنطينة طالبًا للعلم ، ثم ارتحل إلى تونس ، التي كانت من أهم مراكز العلم في المغرب في تلك الحقبة ، حيث تلقى فيها الفقه على يد الشيخ إبراهيم الأخرسي¹³ ، فتمثل وجهة النقاوسي إلى تونس نموذجًا واضحًا على أن هذه المدينة كانت مقصدًا رئيسيًا للأولياء والعلماء وشيوخ الزوايا ، حيث لجأ إليها الجزائريون طلبًا للعلم ، كما كانت محورًا حيويًا في حركة التجارة ، إذ لم تكن الوجهة العلمية منفصلة عن الوجهة الاقتصادية. مما لاشك فيه أن هذه الرحلات تعبر عن الصلات الروحية في حركة التصوف ، وارتباطهم بالشرق والمغرب من خلال الممارسة الصوفية.

2-3. الرحلات التجارية:

وإن لم يكن هذا النوع من الوجهات هو المحور الرئيسي لكتاب الفكون ، إلا أن بعض التراجم لمّحت إلى الأنشطة التجارية التي كانت تتخلل رحلات بعض العلماء أو الأولياء. رحلات بين قسنطينة وتونس أو طرابلس الغرب ، رافقها نشاط تجاري أو تبادل سلع.

ومن بين النماذج التي رصدها عبد الكريم الفكون في منشور الهداية ، تبرز وجهة محمد العطار ، أحد الأولياء الذين جمعوا بين النشاط الاقتصادي والتوجه الروحي والعلمي. فقد كانت له رحلات متكررة إلى تونس ، وذلك عن طريق التجارة ، إلا أن هذه الوجهات لم تكن محصورة في بعدها الهادي فقط ، بل كانت تحمل طابعًا مركبًا ، يعكس شخصية العطار بوصفه تاجرًا صالحًا ووليًا ذا مكانة روحية معتبرة.

عاصر محمد العطار الشيخ عمر الوزان ، أحد أعلام قسنطينة المعروفين بالجمع بين "المعقول والمنقول"¹⁴ ، أي بين العقل والنقل ، وهو ما يدل على البيئة العلمية التي

11 أبو القاسم سعد لله: المرجع السابق ج 1 ، ص ، 520.

12 أبو سالم العياشي —:الرحلة العياشية — تحقيق: محمد حجي ، المغرب — 1977 ، ص 170.

13 يمينه سعودي : المرجع السابق ، ص 83.

14 عبد الكريم الفكون : المصدر السابق ، ص 38.

نشأ فيها العطار ، والتي ساهمت في صقل معارفه وممارساته الدينية. كما أشار الفكون إلى أن العطار كان من المدرّسين بمدينة قسنطينة ، ما يعزز من صورته كفاعل في الحقل الديني والعلمي ، لا يقتصر على الزهد أو الولاية بالمعنى التقليدي¹⁵ وشكّلت رحلة الشيخ أبي العباس أحمد زروق إلى قسنطينة إحدى الوجهات الصوفية ذات الرمزية العالية ، وقد تكرّرت زيارته إليها أثناء تنقله من بلاد المغرب الأقصى إلى المشرق ، مروراً بالأراضي الجزائرية. كانت أسفاره تتم عبر قوافل التجار ، وهو ما يعكس ارتباط حركة الأولياء بالحركة التجارية ، ويبرز في الوقت نفسه دور طرق التجارة كمسالك روحية وعلمية.

وقد حظي زروق بمكانة مرموقة في مدينة قسنطينة ، خاصة لدى عائلة الوزان ، التي كان لها نفوذ إداري واقتصادي. فكان والد الشيخ عمر الوزان يشغل وظيفة مهمة على باب المدينة ، مكلفاً بمراقبة الداخلين والخارجين ، وجمع الضرائب المفروضة على التجار والمسافرين. غير أنه ، تقديراً لولاية أحمد زروق وورعه ، كان يعفيه من الضرائب ، بل يستضيفه ويكرمه ويحسن استقباله في كل مرة يحل فيها ضيفاً على المدينة¹⁶ يُعدّ الشيخ محمد التواتي من أبرز العلماء والأولياء الذين امتدت وجهاتهم من المغرب إلى مدينة قسنطينة ، حيث حظي بمكانة رفيعة وتأثير واسع. كان أصله من قبيلة الرواشد بالمغرب ، وقد اتخذ من قسنطينة محطة مهمة في رحلته العلمية والدعوية ، إذ انتشر علمه فيها وامتلاّت حلقات درسه بالطلبة الذين انتفعوا بعلمه وسلوكياته. وصفه عبد الكريم الفكون في منشور الهداية بأنه "سيبويه زمانه"¹⁷ ، في إشارة إلى مهارته في علوم اللغة والفقه ، وعلوّ مكانته العلمية. كما أشاد به كثيراً ، مما يدل على الاحترام الكبير الذي كان يحظى به في الأوساط العلمية بمدينة قسنطينة. كان التواتي من أنصار العقيدة السلفية الصالحة¹⁸ ، فتجسد رحلة الشيخ محمد التواتي إلى قسنطينة نمطاً متميزاً من وجهات العلماء الذين لم يقتصرُوا على الترحال طلباً للعلم فحسب ، بل انخرطوا في الدعوة والتربية ، مؤثرين بذلك في تشكيل الوعي الديني والفكري في بايلك الشرق ، ومساهمين في ترسيخ التيارات السلفية في المنطقة¹⁹ ، توضح

15 نفسه ، ص 38.

16 أبو القاسم سعد لله : شيخ الاسلام داعية السلفية — دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1976 ، ص 31.

17 عبد الكريم الفكون : المصدر السابق ، ص 62.

18 ابو عمران الشيخ : معجم مشاهير المغاربة ، تقرير ناصر الدين سعيدوني ، 1995 ، ص 425.

19 يمينة سعوددي : الحياة الادبية في قسنطينة — رسالة ماجستير — جامعة منتوري قسنطينة 1 ، ص 58.

هذا النوع من الوجهات التداخل بين الدين والاقتصاد، ودور العلماء والتجار في بناء شبكات اتصال تربط الجزائر بمحيطها الأوسع

4-2. الرحلات الداخلية:

يمكن كذلك تصنيف الوجهات وفق المجال الجغرافي إلى رحلات داخلية، حيث تنقل العلماء داخل بايلك الشرق بين مدن مثل قسنطينة، سطيف، بسكرة، قالمة وغيرها. وقد ارتبطت هذه الرحلات بأغراض متعددة، منها العلمية والتعليمية، ومنها ما كان ذا طابع اجتماعي كالإصلاح بين الناس، أو ممارسة القضاء، أو القيام بمهام الإفتاء.

رحلة عبد الكريم الفكون (الجد):

تُمثل نموذجًا للوليّ العالم الذي جمع بين الصلاح، والعلم، والتصوف. فقد كان من الأولياء الذين اشتهروا في قسنطينة، وانشغل بالعلم والمعرفة، متنقلًا بين حواضر المغرب الإسلامي، خاصة بين المغرب الأقصى، وتونس، وقسنطينة، مشاركًا في الحلقات العلمية، ومعايشًا رجالات العلم والتقوى.

ويصفه حفيده عبد الكريم الفكون في منشور الهداية بأنه: صاحب الدعوة من الخضر عليه السلام"، في إشارة إلى مكانته الروحية العالية وكرامته الخاصة، إذ يُعد ذلك من أبرز ما ميزه بين أهل قسنطينة²⁰

ومن أشهر كراماته التي تناقلها الناس في المدينة، ما وقع ليلة دفنه، حيث رأى أهل البلد نورًا ساطعًا من جهة قبره، امتد إلى عنان السماء، وكان الأمر ظاهرًا للعيان لا يشك فيه أحد من الحاضرين، وهو ما اعتُبر دليلًا على ولايته وصلاحه، وشهادة من السماء على مكانته عند الله.²¹

رحلة الولي الصالح سليمان بن أحمد القشي:

تُبرز سيرة ولي نشأ في بيئة صوفية علمية، اتسمت بالعلم، والصبر، والتدرج في مراتب الصلاح، ينحدر سليمان القشي من بلدة نقاوس، وقد انتقل إلى قسنطينة وهو لا يزال مراهقًا، بعد أن توفي والده في واقعة الطاعون، في مشهد يعكس بدايات صعوبة لكنها مفعمة بالإرادة والطلب، وفي قسنطينة، انكب القشي على طلب العلم، فبدأ بحفظ القرآن الكريم، ثم انتقل إلى دراسة الفقه المالكي، فنهل من كتب مثل الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، والمختصر، وهي من المتون الأساسية التي تُدرّس في مدارس المغرب الإسلامي.

20 عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص51.

21 نفسه، ص51.

تتلمذ سليمان القشي على يد الجد أبي محمد عبد الكريم ، أحد كبار علماء قسنطينة في ذلك الوقت ، وهو الذي أسهم في صقل معارفه وتوجيهه في طريق الصلاح والتقوى.²²

رحلة محمد بن علي الزواوي:

تعكس مسيرة ولي صالح من أهل جبل زواوة ، شاعت أخباره في بلاد المغرب لما عُرف عنه من تقوى وصلاح ، وهو الشيخ الجليل أبو عبد الله محمد بن علي الزواوي. نشأ محمد بن علي في بيت معروف بالصلاح والورع ، فكان والده من أهل الخير ، متوسماً فيه الصلاح منذ صغره ، مما مهّد له السير في طريق الولاية والعبادة. وقد أثنى عليه عبد الكريم الفكون في منشور الهداية ، حيث وصفه بقوله: اتبع سنة في إطعام الطعام ، والإحسان إلى عباد الله ، والأخذ بأيديهم وتحصيل النفع لهم" ، وهي خصال تُجسد حقيقة التصوف العملي ، القائم على خدمة الخلق والتواضع والزهد.²³ من بين الوقائع التي تدل على مكانته الروحية والعلمية ، ما رواه الفكون عن مرور محمد الزواوي بقسنطينة خلال إحدى رحلاته ، حيث نزل بها واجتمع بوالد عبد الكريم الفكون ، في لقاء جمع بين أهل الولاية وأهل العلم ، وكان لهذا اللقاء وقع في نفوس أهل المدينة ، خاصة أن الزواوي كان محل تقدير وذكر حسن²⁴

رحلة أبي عبد الله الموهوب:

وهو —والد الشيخ عبد الكريم الفكون — تُجسّد نموذجاً من أولياء قسنطينة الذين جمعوا بين الهجرة من الجبال إلى الحواضر ، وبين السلوك الصوفي القائم على الزهد والاحتجاب عن الناس. ينحدر أبو عبد الله الموهوب من جبل زواوة ، وهي منطقة عُرفت بكثرة الصالحين وطلبة العلم. انتقل إلى قسنطينة في شبابه طلباً للعلم والتزكية ، واتخذ فيها طريق الخلوة والانقطاع ، زاهداً في الدنيا ، مقبلاً على العبادة والتأمل. عُرف بين الناس بالخير والصلاح ، واشتهر ببركته وورعه ، حتى أصبح اسمه متداولاً على السنة العامة والخاصة. وقد انتقل إلى قسنطينة في عهد الشيخ التواتي ، أحد كبار علماء زمانه ، وقصد المدينة خصيصاً لطلب العلم على يده. نزل في زاوية الأسلاف ،

22 أبو القاسم سعد الله : شيخ الاسلام داعية السلفية — دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1976 ، ص 32، 33.

23 عبد الكريم الفكون : المصدر السابق ، ص 200.

24 نفسه ، ص 200 201.

حيث يُدفن الجد الفكون ، مما يعكس عمق انتمائه الروحي والعائلي إلى هذا البيت المعروف بالصلاح والعلم.

ومن كراماته المشهورة ، ما يُروى أن من ركب بغلته أو حمل كتابًا من كتبه أثناء السفر ، كان يُصان من اللصوص وقطاع الطرق ، لما كان يُعتقد في بركته ، وخشية أن يُصاب من يتعرض له بأذى. وقد عُرف بين الناس بلقب "الولي الثلج"²⁵ ، إشارة إلى نقائه وصفائه ، وربما أيضًا إلى هدوئه وسمته.

يمكن القول إن هذه الكرامة تعكس في الوقت ذاته الثقة الشعبية في الولي كحامٍ للمجتمع ، والدور الرمزي للأسطورة الصوفية في تعزيز مكانة الشيخ داخل محيطه الاجتماعي والديني.

رحلة الولي الشيخ يحيى بن سليمان:

نذكر من بين الأولياء الذين انتقلوا من حاضرة قسنطينة نحو منطقة الأوراس الولي الصالح الشيخ يحيى بن سليمان الأوراسي ، وهو من الأعلام الذين اشتهروا بالصلاح والورع ، فتلقى الشيخ يحيى علومه على يد علماء المغرب الإسلامي ، ونال الإجازة في الفتوى ، مما منحه مكانة علمية وروحية رفيعة. وقد ذاع صيته بين الناس ، وكان مقرَّبًا من الحكّام والأمراء ، الذين كانوا يستشيرونه في شؤونهم ، ويطلبون رأيه في الأمور الكبرى والصغرى. حتى المسافرون ، كانوا يذكرونه طلبًا للحماية والجوار ، لما كان يُعرف عنه من هيبة ومقام.²⁶

لكن هذه المكانة لم تُرض بعض خصومه ، فكثر عليه الوشاة والحساد ، ورفعوا ضده الوشائيات الكاذبة ، إلى أن وصل بهم الأمر إلى حد رفع البيعة عنه ، وهي تهمة جسيمة تُعدّ من أعظم الجرائم في العرف السياسي والديني آنذاك. ولم يجد الشيخ يحيى بدًّا من الفرار من قسنطينة إلى الأوراس ، فرارًا من الفتنة وحفاظًا على نفسه.²⁷ وقد رافقه في رحلته شقيقه ، الذي لم يكن على نفس طريقه في الورع والصلاح ، إذ قام بثورة مستغلًا شهرة واسم أخيه. ولما بلغ خبر تلك الثورة القبائل والعربان ، اجتمعوا على الشيخ يحيى ظنًا منهم أنه هو القائم بها ، لما له من شهرة ومكانة في قلوبهم.

25 عبد الكريم الفكون : المصدر السابق ، ص ص 200 202.

26 عبد الكريم الفكون : المصدر السابق ، ص 54.

27 نفسه ، ص 54.

فقامت السلطة بجمع الجيوش والعساكر لمحاربة هذه الحركة ، وتمكنت في النهاية من القضاء عليها ، وكان ذلك خاتمة مؤسسة لمسيرة شيخ صالح ، استُغل اسمه في غير ما قصد.²⁸

خاتمة:

يتضح من خلال تحليل وجهة رحلات العلماء والأولياء في كتاب منشور الهداية أن "الرحلات" ليست مجرد حركة مادية ، بل هي ممارسة اجتماعية وثقافية مركبة. وقد لعبت دوراً مهماً في تشكيل النخب العلمية والدينية ، وتعزيز العلاقات بين الجزائر وباقي مراكز العالم الإسلامي

يحمل كتاب منشور الهداية في الكشف عن رجال الحماية للشيخ عبد الكريم الفكون قيمة تاريخية وعلمية كبيرة ، إذ وثق من خلاله مسارات عدة من الرحلات والوجهات التي قام بها العلماء والأولياء في الفترة الحديثة. وقد تنوعت هذه الوجهات بحسب الغايات والأهداف ؛ فمنها ما غلب عليه الطابع الديني ، خاصة الرحلات إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ، ومنها ما اتجه إلى تونس والقيروان في سبيل طلب العلم ونيل الإجازات من كبار الشيوخ ، كما برزت وجهات أخرى ذات طابع اجتماعي أو تجاري ، ارتبطت بالتنقل بين المدن والقبائل إما للرزق أو للإصلاح. يكشف الفكون من خلال هذه السير أن الرحلة في عصره لم تكن مجرد تنقل جغرافي ، بل شكلت أفقاً للتكوين العلمي والتزكية الروحية ، وعكست في ذات الوقت دينامية المجتمع المغاربي وتفاعله مع المراكز الدينية الكبرى في المشرق والمغرب.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .
2. أبو القاسم سعد الله: شيخ الإسلام داعية السلفية — دار الغرب الإسلامي ، بيروت 1976.
3. أبو سالم العياشي: —الرحلة العياشية — تحقيق: محمد حجي ، المغرب — 1977 .
4. أبو عمران الشيخ: معجم مشاهير المغاربة ، تقرير ناصر الدين سعيدوني ، 1995 ،
5. أيمن صالح وسعاد كوريم وآخرون: إسلامية المعرفة مجلة الفكر الإسلامي ، ط 1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1999 ؟
6. حسين بوخلوة: عبد الكريم الفكون القسنطيني حيات واثاره 1580 — 1663 م — رسالة ماجستير — جامعة وهران — 2007 ، 2008 .
7. عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية ، تحقيق: أبو القاسم سعد الله ، دار الغرب الإسلامي — لبنان — 1987 ،
8. يمينه سعودي: الحياة الأدبية في قسنطينة رسالة ماجستير جامعة منتوري قسنطينة 2013 / 2024 .